٤

نظرة تاريخية على آداب وأخلاق أهل العلم، نماذج من أواخر القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجريين

أ/ محمد عبده علي محمد صالح، عضو هيئة تدريس بقسم التاريخ،
كلية الآداب، جامعة الحديدة

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى إعطاء صورة عن الواقع التعليمي من أواخر القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجريين من زاوية السلوك والعلاقات الإنسانية التي جمعت بين أهل العلم آنذاك، والصفات والأسس التعليمية التي جعلت منهم علماء موسوعيين نوابغ في أكثر من علم .وتوصل البحث إلى جملة من النتائج من أهمها : تحلي المتعلمين بالآداب والأخلاق الإسلامية المميزة لطالب العلم أهمها: إخلاص النية لله تعالى في طلب العلم، والسعي لتنمية ملكة الحفظ ،والعمل الجاد لتطوير مستواهم العلمي وأدى ذلك لبروز نوابغ منهم في مجالات علمية مختلفة .

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على رسول الله محمد الذي قال فيه الله عز وجل:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم، آية:٤) إن أهم خاصية يتميز بها الإسلام هي الرصيد الأخلاقي الذي يُعلي من قيمة الفرد في الأسرة والمجتمع والأمة، كيف وهذا الفرد هو الساعي في طلب العلم والمعرفة الذي سلاحه القلم والخلق الحميد، فإذا كان الشخص العادي يحتاج في حياته وتعاملاته اليومية للأخلاق حتى يكون عامل جذب للآخرين للتواصل معه في مجالات الحياة المتعددة فكيف الحال بأهل العلم.

بناءً على ما سبق ذكره فإن الباحث عن العلم من باب أولى أن يتحلى بأخلاق الإسلام؛ لأنه يمثل طليعة المجتمع واللبنة الأساسية لبناء المستقبل والنهوض بمجتمعه ووطنه على كافة الصعد مما قد يحقق الازدهار الاقتصادي والتطور العلمي والاستقرار السياسي، ولعل القيادة بالقدوة هي أفضل أنواع القيادة، ولنا في رسول اللهﷺ قدوة حسنة، وقد أطنبت كتب الحديث والسيرة النبوية بالكثير من الشواهد التاريخية التي جسدها الرسول الكريمﷺ سياسيًا بوثيقة المدينة، وفكريًا في تأسيس أول جامعة إسلامية، واجتماعيًا بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

إن النظرة الأفلاطونية للمدينة الفاضلة في حقيقة الأمر تجسدت في الإسلام بصورة شمولية وأكثر عمقاً ووفق فلسفة إسلامية بعيدة عن التخليد والتمجيد تدعو للديمومة والاستمرارية والتجديد لا التقليد، فالمسلم قد يختلف مع أخيه المسلم في الرؤى لكنهم لا يتباينون كثيراً في الممارسة العملية للإسلام . هذه الممارسة التي نهجها المسلمون عامة وأهل العلم خاصة جسدت الإسلام بشكل واقعي في مراحله التاريخية في القرون الهجرية الأربعة الأولى، كان لأواخر القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجريين نصيب منها، وهذا ما سيعرض له البحث في طبيعة الممارسة الحياتية لهذه الشريحة أو الطبقة المهمة من طبقات المجتمع الإسلامي وأثره في المعرفة والنتاج العلمي آنذاك.

أما مشكلة البحث: فسيحاول البحث الإجابة على سؤالين هما: ما هي الأسس التعليمية التي سلكها أهل العلم في نهاية القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجري وأثرها على النشاط التعليمي والنتاج المعرفي؟ وكيف كانت العلاقات التي جمعت بين أهل العلم؟ وأنماطها آنذاك.

سلك هذا البحث منهجين علميين: المنهج التاريخي باستقصاء المادة العلمية المناط الكتابة عنها وجمعها وتحليلها علمياً بحيدة وموضوعية بعيداً عن السرد والحشو- والإشارة إلى المصادر بأرقام الصفحات لمن أراد التوسع والاطلاع حول الموضوع الذي يتم طرقه - ومقارنة الروايات التاريخية والترجيح لما صح منها بعد عرضه على الواقع التاريخي والظروف الاجتماعية والقيم الروحية الإسلامية بما لا يتعارض مع العقل، ولا يقصد البحث هنا اتباع المنهج العقلي الغربي الذي يجعل هوة كبيرة بين القيم الروحية والسلوك الإنساني، فالروح والعقل عنصرين من عناصر المعرفة يصعب الفصل بينهما . والمنهج الوصفي القائم على وصف السلوك الإنساني الذي امتاز به الإنسان المسلم متعلماً ومعلماً في مدة دراسة البحث.

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى محورين رئيسين، الأول عن آداب طلبة العلم الذي تطرق للقدرات والفروق الفردية بين الدارسين وعلاقاتهم مع زملائهم وشيوخهم ضمن عناصر محددة بدءاً من احترام وتقدير الطلبة لأساتذتهم ومعرفة الحقوق الواجبة عليهم تجاه معلميهم، والقدرة على الحفظ والإتقان والذكاء والقدرة على الفهم والاستيعاب والجد والمثابرة في التحصيل العلمي، والتعاون بين المتعلمين والبعد عن الحسد وتمني الخير للآخرين، والتحلي بالصبر والتكيف والتأقلم مع كافة الظروف التي هي من طبيعة الحياة، وأن يكون قريباً من أستاذه حريصاً على استشارته في مراحل تعليمه والمناهج التي تساعده في التحصيل العلمي والأخذ بنصائح شيوخهم، والحرص على تقصي المعلومات والتأكد من صحتها عن طريق البحث العلمي الجاد. وخصص المحور الثاني لأخلاق العلماء في التعامل مع تلامذتهم وأقرانهم وطبيعة العلاقات الإنسانية من مودة وزيارة واجتماع وسفر وتنافس وهمم عالية في التحصيل العلمي لمختلف العلوم، واكتساب معارف علمية جديدة عن طريق التبادل الفكري بين الأقطار والأمصار الإسلامية. ثم انتهى البحث بخاتمة تضمنت النتائج ثم قائمة بالمصادر والمراجع التي أسهمت في بناء البحث.

المحور الأول: آداب المتعلم[١]

إن من أهم ما يجب توافره في طالب العلم حتى يخرج بحصيلة علمية جيدة ومكانة عالية في الدنيا والآخرة، إخلاص النية وأن يكون لوجه الله تعالى أولاً وقبل كل شيء[٢] إضافة إلى مجموعة من العوامل والشروط[٣]، يمكن إيجازها فيما يأتي:

١- ١- الحفظ والإتقان

يعد الحفظ والإتقان من الأمور الواجب توافرها في طالب العلم فقد كان الدار قطني[٤] يُضرب به المثل في الحفظ وقد اشتهر به[٥] ، كذلك وصف السمعاني ما امتاز به الحجاجي

---

(١) من آداب طلب العلم النظافة الشخصية في البدن والملبس، وقد اهتم المسلمون بذلك منذ عهد النبيﷺ لأن الإسلام يحث على ذلك للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع . ينظر: الكتاني، محمد عبدالحي (ت١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) . نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، جـ٢، تحقيق: عبدالله الخالدي، (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص٢٢٢- ٢٢٤ .

(٢) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت(ت٤٦٣هـ/١٠٧١م) . كتاب الفقيه والمتفقه، جـ٢، تحقيق: عادل بن يوسف العَزَازي، (دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية- الدمام، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص١٧٠- ١٧٦ ؛ ابن جماعة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني(ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م). تذكرة السامع والمتكلم في آداب العَالِم والمتعلم، عناية: محمد بن مهدي العجمي، (دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م)، ص٤٥- ٨٧ .

(٣) ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٩٢- ١٩٣ .

(٤) هو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن دينار بن عبدالله البغدادي(٣٠٥- ٣٨٥هـ/ ٩١٨- ٩٩٥م)، منسوب إلى دار القُطن– وهي محلة كبيرة من محالّ بغداد خربت – مقرئ، محدث، وفقيه، انفرد بالإمامة في علم الحديث في دهره، مؤلفاته: في علم القراءات جمع كتاباً مختصراً تمكن فيه من جمع أصولها وصار القراء بعده يسلكون طريقته في تصانيفهم ويحذون حذوه، وله معرفة بمذاهب الفقهاء يظهر ذلك في كتابه (السنن)، كتاب(أحاديث الصفات)، وغيرها. ينظر: الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت(ت٤٦٣هـ/ ١٠٧١م). تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قُطَّانِها العلماءِ من غير أهلها وواريدها (تاريخ بغداد)، مجـ١٣، تحقيق: بشار عواد معروف، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص٤٨٧- ٤٨٨؛ السمعاني، عبدالكريم بن محمد بن منصور(ت٥٦٢هـ/١١٦٦م) . الأنساب، جـ٥، تحقيق: عبدالرحمن بن يحي المعلمي اليماني وآخرون، (مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٢٤٥- ٢٤٦ .

(٥) ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جـ١٤، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا وآخرون، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٣٧٩ .

النيسابوري من قوة الذاكرة بقوله: " حافظ نيسابور في عصره ومن كان يضرب به المثل في الحفظ والإتقان"[١]. واستطاع أبو القاسم التنوخي[٢] أن يحفظ ستمائة بيت من الشعر في ليلة واحدة وعمره خمسة عشر سنة[٣].

أما ابن الجعابي[٤] فقد أشاد أبو علي النيسابوري[٥] بحفظه وقال: " حيرني حفظه"[٦]. ومن تواضع ابن الجعابي أنه حين قيل له ما قاله فيه أبو علي النيسابوري قال: " يقول هذا القول وهو أستاذي على الحقيقة"[٧]. ووصفه الخطيب البغدادي بقوله: " كان أحد الحفاظ المجودين"[٨]. وقد تعلم

(١) الأنساب، جـ٤، ص٥٨ .

(٢) هو علي بن محمد(٢٧٨- ٣٤٢هـ/٨٩٢- ٩٥٤م)، فقيه وقاضٍ ومتكلم وشاعر، درس في صباه بأنطاكية في المكتب سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ، ثم قدم بغداد وتفقه بها على مذهب أبي حنيفة، وسمع من شيوخها، ، ولي القضاء بالأهواز وسائر كُوَرها . ينظر: الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد(ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، جـ٢، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٠٣،١ه/ ١٩٨٣م)، ص٣٩٣- ٤٠٤ ؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ١٣، ص٥٥٠- ٥٥٣ .

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ١٣، ص٥٥٢- ٥٥٣ .

(٤) هو أبو بكر محمد بن عمر بن سالم بن البراء بن سَبْرة بن سيَّار التميمي (٢٨٤- ٣٥٥ه/٨٩٧- ٩٦٥م)، محدث وفقيه، تولى قضاء الموصل. للمزيد في ترجمته ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد.، مجـ٤، ص٤٢- ٤٩؛ السمعاني، الأنساب، جـ٣، ص٢٦٣- ٢٦٤ .

(٥) الحسين بن علي بن يزيد بن داود(٢٧٧- ٣٤٩هـ/٨٩٠- ٩٦٠م)، من أئمة علماء الحديث وأحد أبرز النقاد في علم الحديث في زمنه، وصفه أحد تلامذته(الحاكم) بأنه واحد عصره في الحفظ والإتقان والورع والمذاكرة. ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٨، ص٦٢٢- ٦٢٤ ؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م). سير أعلام النبلاء، جـ١٦، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٥١- ٥٩؛ السبكي، أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) . طبقات الشافعية الكبرى، جـ٣، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو، (دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م)، ص٢٧٦- ٢٨٠.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٨٩ .

(٧) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م). ميزان الاعتدال في نقد الرجال، جـ٦، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص٢٨١ .

(٨) تاريخ بغداد...، مجـ٤، ص٤٢ .

طرق الحفظ من شيخه أبي العباس بن عقده فقد صحبه منذ صغره[١] .كذلك كان ابن الجعابي له قِمَطْران[٢] وأودعها عند رجل من أهل الرَّقة، فلما وصل الرقة أرسل غلامه إلى ذلك الرجل الذي كتبه عنده فرجع غلامه مغموماً وأخبره بضياع الكتب فطلب ابن الجعابي من غلامه بأن لا يحزن وذكر له بأن فيها مائتي ألف حديث لا يُشْكِل عليه منها حديث لا إسناداً ولا متناً[٣]، وهذا يدل على قوة حفظه وإجادته .

وكان الشنبوذي[٤] يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر شواهد للقرآن[٥]، بينما كان أبو بكر الأنباري[٦] يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شعري شواهد في القرآن[٧]. وكان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً من تفاسير القرآن بأسانيدها[١]. وكان يحفظ ثلاثة عشر صندوقاً[٢].

---

(١) ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م). اللباب في تهذيب الأنساب، جـ١، (مكتبة المثنى، بغداد،" د. ت")، ص٢٨٢؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م). لسان الميزان، جـ٧، عناية: عبدالفتاح أبو غدة وسلمان عبدالفتاح أبو غدة، (دار البشائر الإسلامية للطباعة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٤٠٩ .

(٢) القِمْطَرة أو القِمْطَر: تثنيته قِمَطْران، هو الوعاء الذي تحفظ به الكتب، ولعله صندوق خشبي توضع فيه الكتب لحمايتها من التلف. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م). لسان العرب، مجـ٥، (دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)، ص١١٧ .

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٤، ص٤٤ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، جـ١٤، ص١٧٩ .

(٤) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم الشنبوذي البغدادي(٣٠٠- ٣٨٨هـ/٩١٢- ٩٩٧م)، مقرئ ومفسر، عُرف بغلام ابن شنبوذ، من مؤلفاته:(كتاب الشارة في تلطيف العبارة في علم القرآن)، وكتاب (التفسير). ينظر: ياقوت الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) . معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، جـ٥، تحقيق: إحسان عباس، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص٢٣٢٦- ٢٣٢٧ .

(٥) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م). معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، مجـ٢، تحقيق: طيَّار آلتي قولاج، ("د. ن"، استانبول، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص٦٤٠ .

(٦) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار(٢٧١- ٣٢٨هـ/٨٨٤- ٩٣٩م)، مفسر ومحدث، أديب ونحوي وشاعر، امتاز بالذكاء والفطنة وجودة القريحة وسرعة الحفظ، من مؤلفاته: كتاب(الكافي في النحو)، كتاب (نقض مسائل ابن شنبوذ). ينظر: أبي بكر الزبيدي، محمد بن الحسن(ت٣٧٩هـ/٩٨٩م) . طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل، (دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م)، ص١٥٣- ١٥٤؛ القفطي، أبي الحسن علي بن يوسف (ت٦٢٤هـ/١٢٢٧م). انباه الرواة على أنباه النحاة، جـ٣، تحقيق : محمد أبو الفضل، (دار الفكر العربي، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م)، ص٢٠١- ٢٠٨ .

(٧) أبي بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص١٥٣؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد مجـ٤، ص٣٠٠.

يشيد فرانز روزنثال بما يتمتع به العلماء المسلمون وطلبتهم من قوة الذاكرة وأهمية الحفظ والاعتماد عليه في ذلك العصر، ومع ذلك فإنه انتقد مبالغة اهتمام المسلمين بالحفظ لما كان يتمتع به أسلافهم في هذا الجانب، وبرر ذلك أن المسلمين يعولون كثيراً على هذه الميزة آنذاك حتى يتمكنوا من دراسة أهمية الرواية الشفوية في نقل الأخبار عن العلوم الشرعية والأدبية وغيرهما من مجالات العلوم[٣]. واحترام الناس الشديد للعلم المحفوظ ولحافظيه[٤]، وهذا الأمر يبرز جلياً في كتب الجرح والتعديل بالثناء أو القدح في ذاكرة هذا أو ذاك من العلماء. وأن الظاهرة التي كانت سائدة آنذاك وعني بها المسلمون تتمثل في أهمية القيمة النسبية للتعلم على يدي معلم وللتحصيل الذاتي[٥].

١- ٢- الذكاء

من أبرز صفات طالب العلم أن يتمتع بالذكاء، لأن هذا يساعده في التحصيل العلمي الواسع في مدة زمنية قياسية مقارنة بزملائه، ويجعله أكثر قرباً من أستاذه[٦].

كان الأستاذ إذا رأى في طالبه نبوغاً في العلم رفع من مكانته وقرَّبه إليه، وهذا ما فعله ابن دريد[٧] مع تلميذه أبي سعيد السيرافي[١] حين استطاع تغيير بيت من الشعر القديم بأسلوب نحوي بارع،

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٤، ص٣٠٢ .

(٢) الذهبي، معرفة القراء، مجـ٢، ص٥٥٨ .

(٣) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة: أنيس فريحة، مراجعة: وليد عرفات، (دار الثقافة، بيروت- لبنان، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، نيويورك- الولايات المتحدة الأمريكية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م)، ص٢٢ .

(٤) روزنثال، مناهج العلماء، ص٢٣ .

(٥) روزنثال، مناهج العلماء، ص٢٣ .

(٦) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٨٧، ١٨٨ . يقول الشاعر، ولعل هذا الشعر للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ألا لن تنال العلم إلا بستة ❖ سأنبئك عن مجموعها ببيان
ذكـاء وحـرص وبُلْغـة ❖ وإرشـاد أستاذ وطول زمان
الزرنوجي، برهان الإسلام. تعليم المتعلم طريق التعلم،(الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط١، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م)، ص٢٢- ٢٣ .

(٧) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن درید بن عتاهية بن حَنْتَم بن حسن، من أزد عُمَان، نحوي ولغوي أديب وشاعر، من كتبه: (الاشتقاق)، (أشعار ابن دريد)، توفي سنة ٣٢١هـ/٩٣٢م . ينظر: المسعودي، علي بن الحسين(ت٣٤٦هـ/٩٥٧م). مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٤، عناية ومراجعة: كمال حسن مرعي، (المكتبة

جعل أستاذه يرفع من مكانته ويُجلسه بجانبه[٢]. وكان أبو بكر محمد بن داود الظاهري[٣] أحد من يُضرب المَثَلُ بذكائه[٤]. كما كان الدار قطني ذكياً إذا ذكُر شيئاً من العلم أي نوعٍ كان، وُجد عنده منه نصيب وافر[٥]، وكان له قوة المشاركة في الفقه والاختلاف والمغازي والتاريخ وغير ذلك[٦].

١- ٣- الفهم

لم يقتصر التحصيل العلمي على قدرة الحفظ بل لابد من توافر الفهم حتى يستطيع طالب العلم أن يفهم ما يحفظه[٧]، وقد حث الرسول الكريمﷺ الصحابة على ضرورة الدراية – الفهم – وأن الدراية بحديث واحد أفضل من ألف حديث يحفظه ويرويه[٨]، وشبَّه محمد بن إدريس الشافعي – مؤسس المذهب الشافعي- من يحمل العلم جزافاً دون أن يفهم ما يحمله من علم كحاطب ليل يقطع

العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص٢٥٥؛ ابن النديم، محمد بن اسحاق(ت٣٨٠هـ/٩٩٠م). كتاب الفهرست، مجـ١، جـ٢، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ، ص١٧٩- ١٨٠ .

(١) هو الحسن بن عبدالله بن المرزبان(٢٨٠- ٣٦٨هـ/٨٩٣- ٩٧٨م)، أصله من فارس ومولده بسيراف، وهو الذي فسَّر كتاب سيبويه، بعد أن درس علم النحو على يدي ابن السراج وابن دريد، وكانت له معرفة بعلمي الفلك والمنطق، تفقه بالمذهب الحنفي، وهو معتزلي، من أصحاب أبي هاشم عبدالسلام بن محمد الجبائي(ت٣٢١هـ/ ٩٣٢م)، من أبرز مؤلفاته: كتاب (شرح مقصورة ابن دريد)، كتاب(أخبار النحويين البصريين)، وكتاب(شرح كتاب سيبويه). ينظر: أبي بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص١١٩، ١٨٥؛ ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ٢، ص١٨٣- ١٨٤ .

(٢) ينظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، جـ٣، ص١٤٠ .

(٣) أبو بكر محمد بن داود بن علي الظاهري، محدث وفقيه وأديب، فهو إمام الفقه على المذهب الظاهري، من أهم مؤلفاته: كتاب (الزهرة)، توفي سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م . ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص٢٥٢٧ ؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) . الوافي بالوفيات، جـ٣، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٤٨ .

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٣، ص١٠٩ .

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٤٥٤ .

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٤٥٠ .

(٧) ينظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٩٠، ١٠٨ ؛ الزرنوجي، تعليم المتعلم، ص٥٠ .

(٨) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٥٦- ١٥٧، ٢٣٨ .

حزمة حطب فيحملها ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يعلم بذلك[١]، وهذا يدل على أهمية الفهم والاستيعاب في اكتساب العلم، وفي هذا الصدد نجد بأن المؤرخ والنسابة السمعاني حين ترجم للحجاجي النيسابوري[٢] وصفه بقوله" كان فهمه يزيد على حفظه "[٣]. وكذلك كان أبو الحسين عمر[٤] على مقدرة كبيرة من الفهم، فقد وصفه الخطيب البغدادي بأنه يمتلك:" الرأي المُحَصَّل، والفضل والنجابة، والفهم والإصابة، والقريحة الصافية، والمعرفة الثاقبة، والتفرد بكل فضل وفضيلة، والسمو إلى كل درجة رفيعة نبيلة من محمود الخصال"[٥].

روى الخطيب البغدادي أن أحد طلبة العلم سأل أبا بكر بن الخياط[٦] عن مسألة في علم النحو فأجابه عن هذه المسألة وجعل يُفْهِمُه وهو لا يَفهم ويُظْهِر للناس أنه قد فهم، فعرف أبو بكر الخياط بأنه لم يفهم[١].

(١) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٥٧ .

(٢) هو أبو الحسين محمد بن محمد بن يعقوب بن إسماعيل بن حجاج النيسابوري (٢٨٥- ٣٦٨هـ/ ٨٩٧- ٩٧٨م)، مقرئ ومحدث وفقيه نيسابور، اشتهر بكثرة الرحلة في طلب العلم، صنف في علم الحديث عن العلل والشيوخ والأبواب، وكان يمتنع وهو كهل عن الرواية، له كتاب (العلل) . ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٤، ص٣٦٣ - ٣٦٤؛ السمعاني، الأنساب، جـ٤، ص٥٨- ٥٩؛ الصالحي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالهادي الدمشقي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) . طبقات علماء الحديث، جـ٣، تحقيق: أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص١٣٨ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٢٤٠- ٢٤١ .

(٣) الأنساب، جـ٤، ص٥٩ .

(٤) هو عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الأزدي(٢٩١- ٣٢٨هـ/٩٠٣- ٩٤٠م)، وَلي القضاء بمدينة السلام في حياة أبيه نيابة عنه وهو ابن عشرين سنة وذلك في سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م، ثم توفي أبوه فأُقر على القضاء إلى آخر عمره، كان فقيهاً على مذهب الإمام مالك، من مؤلفاته: (المسند)، وكتاب (غريب الحديث) وهو كتاب كبير لم يتمه، وكتاب (الفرج بعد الشدة). ينظر: ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ٣، ص٣٥٤ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم، جـ١٣، ص٣٨٩- ٣٩٢؛ ابن فرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م). الديباج المُذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنّان، (دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص٢٨٤- ٢٨٥.

(٥) تاريخ بغداد، مجـ١٣، ص٨٢ .

(٦) محمد بن أحمد بن منصور الخياط، نحوي من أهل سمرقند، قَدِم إلى بغداد، وكان من أتباع مدرسة بغداد حيث جمع بين مدرستي البصرة والكوفة النحويتين، من مؤلفاته: كتاب (النحو الكبير)، كتاب (المُقنِع في النحو)،

وكان ابن خلاَّد[٢] يدرس علم الكلام على يد أبي هاشم الجبائي[٣]، فكان في الابتداء بعيد الفهم ولذلك فقد أشارت كتب التراجم إلى أنه كان يحزن لحال نفسه وربما يبكي لما يجد نفسه عليه، فجاهد نفسه ليفهم حتى أجاد وتقدم على غيره في هذا العلم[٤].

١- ٤- الشغف بالعلم

كان العلماء يحثون طلابهم على الجد والمثابرة والإصغاء والتركيز في تحصيل العلم[٥] فعلى سبيل المثال: نجد بأن وكيع القاضي[٦] حث طلابه على تحصيل العلم مبيناً لهم بأن ذاك كان سلوكه في طلب العلم حيث قال لهم:

إذا ما غَدَت طلاَّبة العلم تبتغي[١] ❖ من العلم يوماً ما يخلَّد في الكُتب

توفي سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م . ينظر: ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ٢، ص ٢٤٩ ؛ القفطي، أبي الحسن علي بن يوسف (ت٦٢٤هـ/١٢٢٧م). انباه الرواة على أنباه النحاة، جـ٣، تحقيق : محمد أبو الفضل، (دار الفكر العربي ، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٥٤؛ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد(ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جـ١، تحقيق: محمد أبو الفضل، (دار الفكر، مصر، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص٤٨ .

(١) لمعرفة تفاصيل المثال الذي استحضره أبو بكر بن الخياط في درسه والذي حوى أبيات شعرية طريفة ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٨٩- ١٩٠ .

(٢) أبو علي محمد بن خلاد البصري، متكلم معتزلي، من مؤلفاته: كتاب (الأصول)، وكتاب (شرح الأصول) . ينظر: ابن النديم، الفهرست، مجـ٢، جـ٥، ص٦٢٧ ؛ القاضي عبدالجبار، أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م) . فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين، اكتشاف وتحقيق: فؤاد سيد، (الدار التونسية للنشر، " د. ت")، ص٣٢٤ .

(٣)عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب، من متكلمي المعتزلة، من مصنفاته: كتاب (الجامع الصغير)، توفي سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م . ينظر: القاضي، عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٣٠٤- ٣٠٨ ؛ ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٧م) . كتاب طبقات المعتزلة، (عنيت بتحقيقه ونشره: مؤسسة ديفلد – فِلزر، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٩٤- ٩٦ .

(٤) ابن النديم، الفهرست، مجـ٢، جـ٥، ص٦٢٧ ؛ ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص١٠٥ .

(٥) ينظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٨٧- ٨٨ ؛ الزرنوجي، تعليم المتعلم، ص٣٤- ٤٦ .

(٦) أبو بكر محمد بن خلف بن حيّان الضَبِّي، مفسر وفقيه وقاضٍ ومؤرخ وجغرافي، من أشهر مؤلفاته: كتاب(أخبار القضاة وتاريخهم وأحكامهم)، توفي سنة٣٠٦هـ/٩١٨م. ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ٣، ص٣٥٣.

غـدوتُ بـتـشميرٍ وجـدٍّ عـلـيـهـمُ ❖ ومحـبـرتي أذنـي ودفـتـرها قـلـبـي[٢]

روت المصادر التاريخية بأن أبا منصور الأزهري[٣] الإمام المشهور في اللغة لمَّا أسره القرامطة في سنة٣١١هـ/٩٢٣م استفاد من البدو الذين وقع في سهمهم من ألفاظ مخاطباتهم ونوادر أوردها في كتابه (تهذيب اللغة) وهذا الكتاب وضعه في أكثر من عشر مجلدات فبقي في أسرهم دهراً طويلاً يتعلم منهم[٤].

(١) وروى البيهقي رواية أخرى للنص حيث قال:
إذا ما غدت طلابة العلم ما لها❖ من العلم إلا ما يُخَلَّدُ في الكتب
غدوتُ بتشمير وجَدٍ عليهمُ ❖ ومحبرتي سمعي ودفترها قلبي . البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت بعد سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣١م). المحاسن والمساوئ، وضع حواشيه: عدنان علي، (دار الكتب العلمية، بيروت، " د. ت") ص١٦ .

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج٣، ص١٢٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، جـ١٣، ص١٨٦- ١٨٧ ؛ السخاوي، محمد بن عبدالرحمن(ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م). الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: فرانز روزنثال، ترجمة: صالح أحمد العلي، (دار الكتب العلمية، بيروت، " د. ت")، ص٣٢٨ .

(٣) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح بن أزهر الأزهري الهروي،(٢٨٢- ٣٧٠هـ/ ٨٩٥-٩٨٠م) كان فقيهاً شافعياً غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، وكان متفقاً على فضله وثقته ودرايته وورعه، دخل بغداد وأدرك ابن دريد ولم يرو عنه شيئاً، وأخذ عن نفطويه والزجاج، رحل وطاف في أرض العرب في طلب اللغة، من مؤلفاته: كتاب (غريب الألفاظ التي يستعملها الفقهاء) وهذا الكتاب هو عمدة الفقهاء في تفسير ما يشكل عليهم من اللغة المتعلقة بالفقه، توفي بمدينة هَراة . ينظر: ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبدالواحد بن محمد (٥٧٧هـ/١١٨١م). نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار الفكر العربي، القاهرة،١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ص٢٨٠ ؛ ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جـ٧، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص٤١- ٤٢ ؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، جـ٣، ص٦٣- ٦٨ .

(٤) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٥، ص ٢٣٢٢- ٢٣٢٣ ؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ٤، تحقيق: إحسان عباس، (دار صادر، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص٣٣٤ - ٣٣٥ ؛ الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب(ت٨١٧هـ/١٤١٤م). البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق: محمد المصري، (دار سعدالدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص٢٥٢ .

وكان الزجَّاج[١] – بحسب ما جاء في كتب الطبقات والتراجم - يفضل تلميذه ابن ولاَّد[٢] على أبي جعفر النحاس[٣] ولا يزال يُثني عليه عند كلِّ من قدم من مصر إلى بغداد؛ ويقول لهم: " لي عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا ، فيقال له: أبو جعفر النحاس؟ فيقول: بل أبو العباس بن ولاّد"[٤].

وروى البيهقي في كتابه(المحاسن والمساوئ) أن أحد طلاب العلم كان يحضر مجالس العلماء ليكتب عنهم، فحضر مجلساً لأحد العلماء وكان يكتب عنه بعضاً من كلامه ويدع البعض الآخر؛ وذلك تهاونًا منه وتكاسلاً فحثه على أن يكون شغوفًا في طلب العلم ويكتب كل ما يسمعه لأن في ذلك فائدة له تجعله قادراً على فهم العلم واستيعابه[٥].

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل، مفسر ونحوي، لقب بالزجاج؛ لأنه كان يعمل في شبيبته بخرط الزجاج، فاشتهى النحو فلزم المبرد حتى يتعلم النحو على يديه وجعل له كل يوم درهماً أجرة على تعليمه، فداوم على إعطائه ذلك حتى فرق بينهما الموت، من أهم مصنفاته: (معاني القرآن)، و(مختصر نحو)، توفي سنة٣١٦هـ/٩٢٨م . السيرافي ، الحسن بن عبدالله (ت٣٦٨هـ/٩٧٩م). أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبدالمنعم خفاجي، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، ص٨٠ ؛ ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٢١٦ ؛ بروكلمان، كارل (ت١٣٧٦هـ/١٩٥٦م). تاريخ الأدب العربي، جـ٢، ترجمة: عبدالحليم النجار، (دار المعارف، القاهرة ، ط٥، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص١٧١ .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد بن محمد التميمي، كان بصيراً بالنحو، أستاذاً، من كتبه: كتاب(المقصور والممدود)، وكتاب(انتصار سيبويه على المبرد)، توفي سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م . أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص٢١٩- ٢٢٠؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـ١، ص ٣٨٦ .

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المعروف بالنحاس، وصفته المصادر بأنه كان واسع العلم، غزير الرواية، شديد البخل على نفسه، كان له مجلس يملي فيه أخبار الشعراء، كثير التأليف له كتب في علوم القرآن، منها: كتاب(معاني القرآن)، وكتاب(إعراب القرآن) وكان لا يتكبر أن يسأل الفقهاء وأهل النظر ويفاتشهم عما أشكل عليه في تأليفه، وله كتاب (ناسخ القرآن ومنسوخه)وهو كتاب حسن، وكتاب في اختلاف البصريين والكوفيين في النحو سماه (المقنع)، وكتاب في(أخبار الشعراء)، توفي سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م . ينظر: أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص٢٢٠- ٢٢١ ؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـ١، ص٣٦٢.

(٤) أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص٢١٩ ؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـ١، ص٣٨٦ .

(٥) ص١٤ .

وعن أهمية ملكة الحفظ روى البيهقي هذه الأبيات:

أمـا لَـو أعـي كُـلّ مـا أسمـعُ ❖ وأحفـظُ مـن ذاكَ مـا أجمـعُ
ولم أستفد غـيرَ مـا قـد جمعـتُ ❖ لقيـلَ هـو العـالمُ المُقْنِـعُ
ولكـن نفـسي إلى كـل نـوع ❖ مـن العلـم تسمعـهُ تـجزعُ
فـلا أنـا أحفـظُ مـا قـد جَمعـتُ ❖ ولا أنـا مـن جَمعـهِ أشـبعُ
ومَـن لَـثّ في علمـه هكـذا ❖ تـرى دَهـرهُ القَهْقَـرى يَرجـعُ
إذا لم تكُـن حافظـاً واعيـاً ❖ فجَمعُـكَ للكُتْـبِ لا يَنفـعُ[1]

١- ٥- تمني الخير لزملائه وعدم الحسد والتعاون فيما بينهم

على طالب العلم أن يبتعد عن حسد زملائه وأقرانه[2]، وقد وقع بعض طلبة العلم في هذا الخطأ، فقد روى ياقوت الحموي رواية تفيد بأن أبا علي الفارسي وأصحابه كانوا كثيري الحسد لأبي سعيد السيرافي فقد روي عن أبي علي الفارسي: أن أبا سعيد قرأ على ابن السراج[3] خمسين ورقة من أول الكتاب ثم انقطع، ثم ذكر أبو علي بأنه لقي أبا سعيد بعد ذلك فعاتبته على انقطاعه، فقال له أبو سعيد: يجب على الإنسان أن يقدم ما هو أهم، وهو علم الوقت من اللغة والشعر والسماع من الشيوخ، فكان يلزم ابن دريد ومن جرى مجراه من أهل السماع[4]. وفي هذا الصدد نجد بأن أبا الفرج الأصفهاني[5] يهجو أبا سعيد السيرافي لمناقشة كانت بينهما حيث قال:

لسـت صـدراً ولا قـرأتَ علـى صـد ❖ رٍ ولا علمـك البكـيّ بشـافِ
لعـن اللّه كـلَّ شـعرٍ ونحـوٍ ❖ وعـروضٍ يجـيءُ مـن سـيرافِ[6]

(١) المحاسن والمساوئ، ص١٤ .

(٢) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٨٦ . وعلى طالب العلم أن يُرغب بقية الطلبة في التحصيل ويدلهم على مظانه . ينظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ص١٢٤ .

(٣) أبو بكر محمد بن السَّريّ بن سهل البغدادي، مقرئ ونحوي وشاعر وجغرافي، توفي سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م . ينظر ترجمته: ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ٢، ص١٨١- ١٨٢؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص٢٥٣٥- ٢٥٣٦ .

(٤) معجم الأدباء، جـ٢، ص٨٧٧ .

(٥) هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبدالرحمن بن مروان بن عبدالله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأُموي(٢٨٤- ٣٥٦هـ/٨٩٧- ٩٦٧م)، من أئمة الأدب الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي، من أبرز مؤلفاته: (الأغاني)، و(مقاتل الطالبيين)، و(نسب المهالبة) . لمعرفة المزيد ينظر: ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ٣، ص٣٥٤- ٣٥٥ ؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ١٣، ص٣٣٧- ٣٤٠ ؛ الزركلي، خيرالدين . الأعلام، جـ٤، (دار العلم للملايين، بيروت ، ط ١٥، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٢٧٨ .

(٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٢، ص٨٧٧ ؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـ١، ص٥٠٩ .

وكان أبو عمر الزاهد يحث الطلبة على مكارم الأخلاق، من طلاقة الوجه وإفشاء السلام والسعي في قضاء الحاجات والإيثار وترك الاستئثار[١]، وكان يقول لهم: " ترك حقوق الإخوان مذلة، وفي قضاء حقوقهم رفعة، فاحمدوا الله على ذلك، وسارعوا إليه، وبالِغوا في قضاء حوائجهم ومسارّهم تكافؤوا على ذلك"[٢].

حرص العلماء على أن يستوفي طلابهم تحصيل ما بحوزتهم من علم ومعرفة حتى يكونوا على إلمام تام أو قدر كبير في معرفة هذا العلم، وهذا ما فعله أبو العباس بن عقدة مع طلبته، فحينما أراد أحد تلاميذه - ومعه إخوة ثلاثة - توديعه والعودة إلى موطنهم بعد أن مكثوا بالكوفة عِدة سنين يكتبون عنه الأحاديث، بادر ابن عقدة بسؤال أحدهم: قد اكتفيتم بما سمعتم مني؟ وأخبرهم أن أقل شيخ سمع منه عند ابن عقدة عنه مئة ألف حديث، فأجابه أحدهم بأنهم إخوة أربعة، قد كتب كل واحد منهم عنه مئة ألف حديث[٣] . ويبدو أن هذه الإجابة قد أثلجت صدر ابن عقدة، فاطمأن بذلك على المستوى التحصيلي العالي لهؤلاء الإخوة، ولعله من البديهي أن يوجه لهم بعض النصائح، في مقدمتها نشر ما سمعوه وكتبوه عنه من أحاديث، وأن يحرصوا على مراجعة ما كتبوه من خلال المذاكرة فيما بينهم ومع غيرهم، وخاصة أن شيخهم هذا- ابن عقدة- كان واسع العلم لدرجة أن الناس لا يحيطون علمًا بكل ما عنده[٤].

١- ٦- الصبر والمجالدة في طلب العلم

ينبغي لطالب العلم أن يكون صبوراً جلداً يتحمَّل مختلف الظروف[٥] حتى يتمكن من التحصيل العلمي الجيد، فبعض طلبة العلم كان يصبر على الجوع أياماً وشهوراً وسنيناً، ويكتفي بلقيمات يسد بها رمقه، ومنهم من كان يمشي في طلب العلم حافياً لفقره، ومنهم من كان يذهب إلى المحدثين ونعله بين يديه تعظيماً لحديث الرسولﷺ واقتداءً بسنتهﷺ تأولاً كأبي بكر أحمد النجاد[٦]

(١) عن الحث على مكارم الأخلاق، ينظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٥٤ .

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٣، ص٦١٩- ٦٢٠ ؛ القفطي، إنباه الرواة، جـ٣، ص١٧١ .

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٦، ص١٥٢ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٥، ص٣٤٧ .

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٦، ص١٥٢ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٥، ص٣٤٨ .

(٥) ينظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٥٧- ٥٨ .

(٦) أحمد بن سلمان بن الحسن بن إسرائيل بن يونس البغدادي(٢٥٣- ٣٤٨هـ/٨٦٦- ٩٥٩م)، محدث وفقيه حنبلي، جمع (المسند) وصنف كتاباً كبيراً في (السنن). ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٥، ص٣٠٩- ٣١٣ ؛ الشيرازي ، إبراهيم بن علي بن يوسف (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٤م). طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، (دار الرائد العربي، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م)، ص١٧٢ . صحّف اليافعي لقب (النجاد) إلى (السجاد) . ينظر: عبدالله بن أسعد

الذي كان يمشي في طلب الحديث حافياً لهذين الغرضين مما رفع من همته في التحصيل العلمي حتى وصل إلى أعلى مراتب العلم[١]. وقد كان هذا ديدن طلبة العلم منذ القدم فقد نقل الخطيب البغدادي ما رواه أبو بكر بن دريد عن شرف العلم والصبر على تعب العلم مما جاء عند أفلاطون قوله:" مُحِبّ الشرف هو: الذي يُتْعِبُ نفسه بالنظر في العلم "[٢].

كان بعض طلبة العلم والعلماء يعتكفون بالمساجد طلباً للعلم أو لتدريسه، فقد كان المسجد فراش أبي عمرٍ بن حمدان[٣] حوالي ثلاثًا وثلاثين سنة يطلب العلم حتى أدرك مسانيد كبار المشايخ في عصره كأبي يعلى الموصلي[٤] وابن السراج والحسن بن سفيان[٥] وغيرهم[٦].

١- ٧- احترام وتقدير الطالب لأستاذه

ينبغي على طالب العلم أن يُعَظِّمَ شيخه ومن يسمع منه؛ وقد حثّ النبيﷺ أصحابه على ذلك[٧]، واقتدى الخلفاء الراشدون ومن بعدهم الأمويون والعباسيون بهذا النهج التعليمي في حث طلبة

بن علي(ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، جـ٢، وضع حواشيه: خليل المنصور، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص٢٥٧.

(١) ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٥، ص٣١١ ؛ ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م). صفة الصفوة، مجـ١، تحقيق: طارق محمد عبدالمنعم، (دار ابن خلدون للطباعة والنشر، الإسكندرية – مصر، " د. ت")، ص٤٦٩ .

(٢) الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص٢٠٦ .

(٣) أبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان بن علي بن سِنان الحيْري(٢٨٣- ٣٧٦هـ/٨٩٦- ٩٨٧م)، المشهور بأبي عمرو بن حمدان، مقرئ ومحدث ونحوي، كان مسند خراسان في عصره، ولما أصيب بالعمى وكبر سنه نُقل إلى بعض أقاربه بالحيرة. ينظر: السمعاني، الأنساب، جـ٤، ص٢٨٨- ٢٨٩.

(٤) أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي المَوْصِلي، محدث الموصل، لقي كبار المحدثين وسمع منهم، حتى صار من كبار المحدثين بالموصل في عصره، وهو من العلماء الثقات عند أهل الحديث، من مؤلفاته: كتاب(المسند)، و(المعجم)، وكتاب(المفاريد)، توفي في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة٣٠٧هـ/الثاني عشر من أكتوبر سنة ٩١٩م . ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص١٧٤- ١٨٢.

(٥) أبو العباس الحسن بن سفيان بن عامر بن عبدالعزيز بن النعمان بن عطاء الشيباني الخراساني النَّسَوي، محدث خراسان في عصره، وهو من أقران أبي يعلى، من كتبه: (المسند)، توفي في شهر رمضان سنة ٣٠٣هـ/ إبريل سنة ٩١٦م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص١٥٧- ١٦٢ .

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٣٥٨ .

(٧) ينظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٩٦، ٩٨- ١٠١ ؛ الكتاني، نظام الحكومة، جـ٢، ص٢١٩- ٢٢٠، ٢٨٦. وكان بعض الصحابة يقبل تلاميذه يده . ينظر: الكتاني، نظام الحكومة، جـ٢، ص٢٨٧ .

العلم على خدمة العلماء وكسب ودهم[١]؛ لأن ذلك من تقدير العلم وإجلاله وسبباً في الانتفاع به[٢]، فقد نقل الذهبي عن ابن عدي بأنه كان يحضر مجلس عبدان لسماع الحديث منه وكان عبدان يخطأ في راوٍ من رواة الحديث، وتكرر هذا الخطأ من عبدان، ولكن ابن عدي لم يستطع أن يخبر شيخه عبدان بهذا الخطأ أو الوَهم إذ كان لعبدان هيبة تمنع تلامذته أن يقولوا له ذلك، وذلك احتراماً وتقديراً لشيخهم، وذكر ابن عدي بأن عبدان حدثهم في مجلس آخر بحديث فيه أشرس فقال: رشرس، فتوقف ابن عدي في الرد عليه[٣]. وكان العلماء لا يضجرون من أسئلة تلامذتهم لهم، ومع ذلك كان بعض الطلاب يكثرون من الأسئلة على مشايخهم إلى حد معاتبة قرنائهم لهم على ذلك[٤]. والذي يظهر أن خير وسيلة لتنبيه المعلم إذا أخطأ أن ينبهه الطالب على انفراد نهاية الدرس أو يقول له لعلك تقصد كذا وأما يتركه يخطأ ولا ينبهه من باب الهيبة أو نحوه فلعله هذه الرواية مبالغ فيها؛ لأن هكذا سلوك لا يخدم الحقيقة والعلم.

يستحسن أن يكون طالب العلم مقتنعاً بشيخه ومعتقداً بمكانته العلمية وجلالة قدره ورُجحانه وأن يعمل على كسب رضاه، كما ينبغي على طالب العلم أن لا يُطَوِّل على شيخه حتى لا يُضْجِرَهُ[٥] بل يقنع بما يحدثه به، فإن الإضجار يغير الأفهام ويفسد الأخلاق ويحيل الطباع، إذ قد يكون الشيخ أنهى مجلسه وأراد أن يقوم فحينما يسأله الطالب يكون قد أثقل عليه، فمن الممكن أن يؤجل سؤاله للمجلس القادم، وبذلك حافظ على راحة الشيخ وحسن علاقته به وفي الوقت نفسه استفاد من علمه

(١) ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٨٤، ١٩٦- ١٩٨ .

(٢) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد(ت٩١١هـ/١٥٠٥م) . تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جـ٢، شرح وتعليق: أبو عبدالرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، (دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص٨٦ ؛ الزرنوجي، تعليم المتعلم، ص٢٥- ٢٦ .

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص١٧١ .

(٤) ينظر: الزجاجي، أبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق(ت٣٤٠هـ/٩٥١م). مجالس العلماء، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون،(التراث العربي سلسلة تصدرها وزارة الإعلام(٩)، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٦٥ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، جـ١٣، ص١٦١ .

(٥) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٩٨، ٣٢٠ ؛ السيوطي، تدريب الراوي، جـ٢، ص٨٦ . ومن توقير المعلم أن لا يمشي أمامه ولا يجلس مكانه ولا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه ولا يكثر الكلام عنده ولا يسأل شيئاً عند ملازمته ويُراعي الوقت، ولا يدق الباب بل يصبر حتى يخرج الأستاذ . ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٩٨ ؛ الزرنوجي، تعليم المتعلم، ص٢٦- ٢٨ .

وأفاد غيره من الحاضرين، وهذا قد يؤدي إلى انزعاج المدرس من طلابه، من ذلك: أن المفجع[1] كان يجلس في الجامع بالبصرة فَيُكْتب عنه ويُقْرأَ عليه الشعر واللغة والمصنفات، وامتنع من الجلوس مدة لأذى لحقه من بعض من حضر مجلسه، فخوطب في ذلك فقال: لو استطعت أن أنسيهم أسماءهم لفعلت[2]. وهذا يدل على أن خطأ الطلاب كان كبيرًا ولكن حلمه وصبره على طلبته جعله يتسامح معهم.

١- ٨- حقوق العلماء على تلامذتهم

من حقوق الأستاذ على طلابه أن يدافعوا عنه في حال تعرَّض للنقد غير الصحيح بغرض الانتقاص من شيخهم والحط من مكانته العلمية؛ إذ كان طالب العلم – في فترة الدراسة- يدافع عن أستاذه إذا تعرَّض للنقد، وهذا ما فعله غلام ابن دريد وهو أبو الحسين علي بن أحمد ببغداد مع عبادُ بن عمرو بن الجُليس الكرماني الذي طعن على ابن دريد ونقض عليه كتاب (الجمهرة)، فقد دخل غلام ابن دريد وجلس بحذائه في الجامع ونقض على الكرماني جميع ما نقضه على ابن دريد بالحجة والبرهان حتى اقتنع الجميع بصحة علم ابن دريد وجهل الكرماني، وكان ذلك سبباً في ابتعاد أهل العلم عن الكرماني ومجالسه[3].

١- ٩- استشارة طلاب العلم شيوخهم والأخذ بنصائحهم

كان طالب العلم يفوض أستاذه ترتيب العلوم في التحصيل ويأخذ برأيه ونصيحته؛ وذلك لمعرفة الشيخ ما يلائم طبيعة وقدرات تلميذه، ولخبرة العالم وتجاربه في كيفية الاهتداء إلى المطالب والمآرب[4]، فلطالب العلم الحق في أن يستشير شيخه في كيفية طلبه للعلم وما هي العلوم التي يبدأ بالاشتغال بها ودراستها[5]؟

---

(١) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الكاتب البصري، شاعر البصرة وأديبها في عصره، وكان له شعر كثير في أهل البيت، توفي سنة٣٢٠هـ/٩٣٢م . ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١، ص١١٧ ؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـ١، ص٣١ ؛ الزركلي، الأعلام، جـ٥، ص٣٠٨ .

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٥، ص٢٣٤٠ .

(٣) ينظر: السيوطي، بغية الوعاة، جـ١، ص٨٠ . مدلول تسمية غلام هي مداومة الخدمة وملازمة طلب العلم. السيوطي، بغية الوعاة، جـ١، ص٨٠ .

(٤) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٩٧ ؛ طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى(ت٩٦٢هـ/١٥٥٥م). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، جـ١، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٣١ ؛ الزرنوجي، تعليم المتعلم، ص٢٠، ٣١- ٣٢ .

(٥) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٩٧ ؛ السيوطي، تدريب الراوي، جـ٢، ص٨٦ .

١- ١٠- الأمانة العلمية وتحري الدقة في طلب العلم

كان طلبة العلم يحرصون على الأمانة العلمية وتحري الدقة وحين الشك في الرواية يرجعون إلى الشيخ الذي روى تلك الرواية كما فعل ذلك ابن خالويه[١] الذي ذهب من جامع أبي جعفر المنصور إلى سوق العطش ببغداد ليلتقي بابن مجاهد[٢]، فالتقى به وسأله عن تلك الرواية المتعلقة بعلم القراءات فتبين له عدم صحتها[٣].

لم يكن طلبة العلم آنذاك مجرد متلقين من شيوخهم، بل حرصوا على التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة والجد والاجتهاد[٤] وتقصي سلسة السند لرواة الأحاديث والتعريف بهم وبأحوالهم وأخبارهم والعلوم الأخرى التي برزوا فيها، فمن نماذج ذلك: أن الرامهرمزي[٥] الذي سمع الحديث من عبدان[٦] ببغداد وبعسكر مُكْرَم – بالقرب من البصرة – قد اختلف مع شيخه في التعريف بإحدى التابعيات[٧] اللواتي روين الحديث، فعبدان عرفها بحسب اجتهاده، لكن الرامهرمزي اجتهد وتقصى

(١) هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان، لغوي ونحوي وشاعر، له كثير من التأليف والشروح، مثل(شرح شعر أبي فراس)، وله كتاب(بديع القرآن)، وكتاب(القراء)، توفي بحلب سنة٣٧٠هـ/ ٩٨٠م. ينظر: الثعالبي، يتيمة الدهر، جـ١، ص١٣٦- ١٣٧؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، جـ٢، ص٢٤٠- ٢٤٢ .

(٢) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس البغدادي العَطَشي (٢٤٥- ٣٢٤هـ/٨٥٩- ٩٣٥م)، مقري بغداد في عصره . ينظر: ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ١، ص٨١- ٨٢ .

(٣) لمعرفة هذه الرواية وتفاصيلها ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٢، ص٥٢٢ .

(٤) ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص٨- ١٣٧؛ ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٥٧- ٥٩.

(٥) أبو محمد الحسن بن عبدالرحمن بن خلاّد الفارسي، مفسر ومحدث وشاعر، من كتبه: (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي)، توفي حوالي ٣٦٠هـ/٩٧٠م . ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٧٣- ٧٤ ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٢، ص٤٢ .

(٦) أبو محمد عبدالله بن أحمد بن موسى بن زياد الأهوازي الجواليقي المعروف بعَبدان، فقيه ومن أئمة علماء الحديث في عصره، إذ كان – بحسب المصادر- أحد الحفاظ الأثبات، جمع المشايخ والأبواب في تصانيفه في علم الحديث، حدّث أولاً بالأهواز ثم بعد ذلك قدم بغداد وحدّث بها ثم انتقل في سنوات عمره الأخيرة إلى عسكر مُكْرَم – وهي قريبة من البصرة– وظل يحدث الناس إلى أن توفي بها سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م . ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ١١، ص١٦- ١٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص١٦٨- ١٧٢ .

(٧) هي عَمْرة بنت عبدالرحمن بن سعد بن زرارة من بني النجَّار، كانت عالمة روى عنها ابن شهاب الزهري وعبدالله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما . ينظر: ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠هـ/٨٤٥م) . كتاب الطبقات الكبير، جـ٢، تحقيق : علي محمد عمر، (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص٣٣٢- ٣٣٣، جـ١٠، ص٤٤٥ ؛ الرامهرمزي، الحسن بن عبدالرحمن(ت٣٦٠هـ/٩٧١م). المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، تحقيق وتقديم وتخريج وتعليق وفهرسة: محمد عجاج الخطيب، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص٣٣٨ .

النسب الصحيح لهذه الراوية لكن الأمانة العلمية جعلته يبين ما ذكره شيخه بأنه قد رجح نسبها ببنت فلان وأنه أوضح عدم صحة النسب الثاني لها، في حين أن الرامهرمزي رجح النسب الثاني بعد البحث والتنقيب في نسبها، ولم يجعل قول شيخه ورأيه حجة، بل اجتهد مثل شيخه[١].

المحور الثاني: أخلاق العلماء

تحلى العلماء مع طلابهم وأقرانهم بآداب وأخلاق الإسلام[٢]، وستعرض الدراسة لنماذج من ذلك على النحو الآتي:

٢- ١ - الاحترام والتقدير المتبادل بين قرناء العلم

سار الصحابة ومن بعدهم التابعين على نهج كتاب الله وسنة رسولهﷺ في تقدير العلم والعلماء، من ذلك: أن عبدالله بن مسعودﷺ مرّ بحلقة علم فيها علقمة[٣] وعدد من العلماء مع تلامذتهم فوقف عليهم فقال: " بأبي وأمي العلماء..." [٤].

من نماذج التقدير والاحترام المتبادل بين أهل العلم ما ذكره الذهبي من ثناء أبي علي النيسابوري على قوة حفظ ابن الجِعابي وأبدى دهشته وتعجبه من ذلك وأنه ليس في أصحابه من هو بمثل ابن الجعابي، فبلغ هذا الثناء والوصف لابن الجعابي فرد ابن الجعابي بأن أبا علي هذا هو أستاذه على الحقيقة[٥] كما سبق الإشارة إلى ذلك. وهذا يدل في الوقت نفسه على التنافس في التحصيل العلمي بينهما ، كما يدل - أيضا- على تواضعهما وعلى التأدب بأدب العلماء.

(١) الرامهرمزي، المحدث الفاصل، ص٣٣٨ .

(٢) ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص١٩٢- ٢٣١؛ ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٤٨- ٨٤.

(٣) أبو شِبْل علقمة بن قيس بن عبدالله النَّخَعي، مقرئ الكوفة وفقيهها وعالمها، توفي تقريباً سنة٦٢هـ/ ٦٨١م. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبير، جـ٨، ص٢٠٧- ٢١٣ .

(٤) أبي نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء...، جـ٢، ص٩٨- ٩٩ .

(٥) سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٥٥- ٥٦ .

بينما جاء في كتب طبقات المعتزلة أن أبا الحسن الاسفنديانى[١] لما أقام بمدينة العسكر كاتبه المتكلمون يسألونه عن أبي علي الجبائي[٢] فأرسل إليهم بكتاب (الأسماء) يعرفهم فيه بغزارة علم أبي علي الجبائي في علم الكلام[٣].

كان بعض العلماء ومنهم المحدثين يزل لسانه بالخطأ من غير قصد فيصوب له أصحابه لكنه لا يقبل هذا التصويب أنفة وإلا فهو في قرارة نفسه يعلم بأنه قد أخطأ، وهذا ما حصل مع عبدان الذي زلّ لسانه بخطأ لغوي، فصوّب له ابن سريج[٤] فرفض عبدان تصويبه لكنه عرف بأنه أخطأ وعَجِبَ من صواب ابن سريج وقوة تركيزه كما أن ابن سُريج عجب من خطأ عبدان ومثله لا يُخطأ؛ لعلو شأنه وقدره[٥]، ومع ذلك فإن كليهما لم يصرًّا على رأيهما، واكتفى ابن سريج بتنبيه الشيخ لخطأه احتراماً وتقديراً له. وعلى كل حال من الذي يَسْلَمُ من الوَهم ؟

روى الخطيب البغدادي أنه كان ببغداد جمعٌ للقضاة والفقهاء فأرادوا التوجه إلى مكان، وكان بصحبتهم ابن سريج فاتفقوا على أن يتقدمهم بالرغم من أنه كان في الجمع من هو أكبر منه سناً[٦]، ولكنهم قدموه لتقديرهم واحترامهم له وللمكانة العلمية العالية التي بلغها. وكان أبو بكر بن داود وأبو العباس بن سريج يسيران في طريق ضيقة، فقال له أبو العباس: الطرق الضيقة تورث

(١) ويعرف أيضاً بأبي الحسن الاسفرائيني، وهو أحد شيوخ العسكر والرؤساء بها في التفسير والحديث وعلم الكلام، أشاد أبو هاشم الجبائي به وبعلمه . القاضي عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٣٠٩ ؛ ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص٩٩ .

(٢) هو محمد بن عبدالوهاب بن سلام بن خالد بن عِمران بن أبان - مولى عثمان بن عفانﷺ - إمام المعتزلة بالبصرة في عصره، من مؤلفاته: كتاب (الإمامة)، توفي سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م . ينظر: ابن النديم، الفهرست، مج٢، ج٥، ص٦٠٧ ؛ القاضي عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٢٩١ .

(٣) القاضي عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٣٠٩ ؛ ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص٩٩ .

(٤) أبو العباس أحمد بن عمر(٢٥٠- ٣٠٦هـ/٨٦٤- ٩١٨م) فقيه شافعي ونحوي ومتكلم، فقد كان إمام الشافعية في عصره . ينظر ترجمته: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج٥، ص٤٧١- ٤٧٥ ؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص٢١- ٢٣ .

(٥) الرامهرمزي، المحدث الفاصل، ص٥٢٧ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص١٧٠ .

(٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج٥، ص٤٧٤ .

العقوق، فقال له أبو بكر: وتوجب الحقوق[١]. لأنه قد يتقدّم فيها من هو أقل شأنًا وعلمًا من الآخر هذا عقوق في حق من هو أكثر مكانة علمية، وإن صار العكس فهو يوجب الحقوق بأن يتقدَّم الطريق أكثرهم علمًا اعترافًا منهم بقدره ومكانته. وكان العلماء يعزون بعضهم في وفاة أحد قرنائهم، كما فعل أبو عبدالرحمن الصيدلاني حينما توفى أبو عمر الباهلي[٢] سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م فأرسل بكتاب عزاء لأبي علي الجبائي يعزيه فيه بموت صديقه الباهلي – وكان أبو علي الجبائي يواظب على حضور مجلس الباهلي- فرد أبو علي الجبائي جواباً على تعزيتهم له فقال: " وأما أبو عمر فما أطمع أن يكون مثله إلى يوم القيامة "[٣].

٢- ٢- الزيارة والعطل

كان العلماء يزورون طلابهم وأقرانهم من العلماء ويتفقدون أحوالهم ويسألون عمن غاب منهم ويحرصون على تبادل الاحترام فيما بينهم[٤]، فمن ذلك: أن ابن سريج قدم إلى عسكر مُكْرَم لزيارة عبدان، وكان أبو علي النيسابوري بها، فلما علم بمجيء ابن سريج ذهب إليه ليسأله عن سند واحد من الأحاديث، فامتنع عن جوابه، احتراماً وتقديراً لعبدان، وطلب من أبي علي أن يسأل عبدان عند حضوره إلى المجلس[٥].

وعلى كل حال يبدو مما سبق ذكره أن بعض العلماء حينما يزور عالماً في منطقة ليس له حضور علمي فيها أو كونه ليس من شيوخها المحدثين كان يتجنب الرد على أسئلة طلبة العلم حتى يتحاشى أن تقع بينه وبين شيخ من شيوخها خصومة أو حساسية لا سيما وأن طبائع الناس مختلفة،

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٣، ص١٦٢ .

(٢) أبو عمر محمد بن عمر بن سعيد الباهلي البصري، فقيه وقاض ومتكلم واخباري وشاعر، من كبار علماء المعتزلة، من كتبه: (إعجاز القرآن)، و(التوحيد)، و(الأصول) في التوحيد، توفي سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م . ينظر: ابن النديم، الفهرست، مجـ٢، جـ٥، ص٦١٧ ؛ القاضي عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٣١٠- ٣١٢ ؛ الزركلي، الأعلام، جـ٦، ص٣١١ .

(٣) القاضي عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٣١١ .

(٤) ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص٢٤٥- ٢٤٦ .

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص١٧١ .

وقد يفهم البعض أن ذاك انتقاص من هذا الشيخ أو ذاك، في حين أن الصنف الآخر من العلماء يرى أن هذا الأمر اعتيادي لا ضير فيه فالجميع يسعى لخدمة العلم ونشره.

حظي أبو بكر بن الخياط باحترام العلماء في عصره، إذ لما قدم من سامراء[1] إلى بغداد قام بزيارة أبي الحسن الأشعري(ت٣٢٤هـ/٩٣٥م)[2] فاستقبله أحسن استقبال ورحب به وأكرم قدره في مجلسه بأن أجلسه إلى جواره، ثم ذهبا إلى مجلس أبي إسحاق الزجاج فقام أبو الحسن بالتعريف بالخياط للزجاج وطلابه، فطلب الزجاج من الخياط الجلوس إلى جواره[3].

زار أبو هاشم الجبائي(ت٣٢١هـ/٩٣٣م) أبو محمد الرامهرمزي – وهو من تلامذة أبيه أبي علي الجبائي – في مدينة رامهرمز في شهر رمضان فاستقبله بحفاوة وأنزله في داره ومكث مدة في ضيافته[4].

حرص العلماء- أيضاً- على تفقد أحوال طلابهم والسؤال عنهم مما كان يعزز في نفوسهم الرغبة في العلم وتوثيق الصلة بين التلميذ والأستاذ فقد نقل ياقوت الحموي عن عبدالعزيز بن محمد الطبري بأن أبا جعفر الطبري كان يفعل ذلك مع أصحابه[5].

(١) مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي نهر دجلة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجـ٣، ص١٧٣-١٧٧.

(٢) علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري(٢٦٠- ٣٢٤هـ/٨٧٣- ٩٣٥م)، مؤسس مذهب الأشاعرة (الأشعرية) وعلم الكلام السني، من أشهر مؤلفاته: (اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)، و(مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)، و(التبيين عن أصول الدين) وطبع هذا الكتاب بعنوان(الإبانة عن أصول الديانة) . ينظر ترجمته: ابن النديم، الفهرست، مجـ٢، جـ٥، ص٦٤٨- ٦٤٩ ؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ١٣، ص٢٦٠- ٢٦١ .

(٣) الزجاجي، مجالس العلماء، ص١٢٧ .

(٤) القاضي عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٣١٥ .

(٥) ينظر: معجم الأدباء، جـ٦، ص٢٤٦٥ .

وكان للعلماء وقت يجتمعون فيه مع بعضهم لقضاء أوقات فراغهم وللترويح عن أنفسهم، من ذلك أنه اجتمع ابن السراج وأبو بكر بن مجاهد وإسماعيل القاضي في بستان ببغداد لقضاء أوقات فراغهم من الدَّرس أو حلقات العلم[١].

ومن الطريف ذكره هنا أن العلامة المقرئ يَمُوت بن المُزَرَّع[٢] كان لا يعود مريضاً؛ خوفاً من أن يتطير من اسمه[٣].

٢- ٣- التباهي بين العلماء بقوة الحفظ

إن ما يتميز به العرب عن غيرهم هي ملكة الحفظ؛ لذا كانوا يتباهون بها، من ذلك ما ذكره أبو العباس بن عقدة[٤] أن أبا بكر البَرْدِيجي[٥] لما دخل مدينة الكوفة زعم أنه أكثر حفظاً من ابن عقدة؛ لذلك طلب ابن عقدة من البرديجي أن لا يُكثر الكلام في هذا الموضوع وأنه إن أراد أن يبرهن ذلك عليه أن يذهب إلى دكان وَرّاق ويزن من الكتب ما يشاء ويأتي بها ثم يسأل ابن عقدة عنها؛ فاندهش البرديجي بشدة وبقي في مكانه[٦].

---

(١) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٢٢٠ .

(٢) هو أبو بكر يَمُوت بن المُزَرَّع بن موسى بن يموت بن سنان بن حكيم بن جبلة بن عبدالقيس العبدي البصري(ت٣٠٤هـ/٩١٦م)، اسمه محمد ولكن اشتهر بلقبه ولا يكاد يعرف إلا به، وهو ابن أخت الجاحظ، مقرئ متصدّر مشهور ومحدِّث ونحوي أديب وراوية، وكان من مشايخ العلم والشعر أخبارياً حسن الآداب، توفي بدمشق. ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد...، مجـ٤، ص٤٩٦، مجـ١٦، ص٥٢٣- ٥٢٥.

(٣) ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، جـ١٣، ص١٧٣ ؛ مصطفى، محمود . إعجام الأعلام، جـ١، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٢٠٠ .

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عبدالرحيم بن إبراهيم بن زياد بن عبدالله بن عجلان الكوفي (٢٤٩-٣٣٢هـ/٨٦٣- ٩٤٣م)، مفسر ومحدث وفقيه كوفي شيعي المذهب، من مؤلفاته: (التفسير)، و(السنن) . ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٦، ص١٤٧- ١٥٩ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٥، ص٣٤١- ٣٤٤ .

(٥) هو أبو بكر أحمد بن هارون بن روح البردعي البرديجي النيسابوري، ونسبته إلى (برديج) وهي قرية صغيرة بأقصى أذربيجان، كان فقيهاًمحدثاً ثقة حافظاً، توفي ببغداد في رمضان سنة٣٠١هـ/ مايو٩١٤م . السمعاني، الأنساب، جـ٢، ص١٣٩- ١٤٠ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص١٢٢- ١٢٣ .

(٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٦، ص١٥٠ .

٢- ٤- التنافس بين العلماء

ذكرت الدراسة فيما سبق لنماذج من علاقات المودة والألفة والاحترام والصحبة بين العلماء، كما جرت بين بعضهم التنافس والحسد اللذين يعتريان النفس البشرية، ولا يستبعد حدوث هذا الشعور الإنساني عند العلماء مهما علت مكانتهم العلمية، وسنوضح هذا النوع من العلاقات على ما جرى في مدة الدراسة بنماذج، من ذلك: أن أبا عبدالله الواسطي(ت٣٠٧هـ/ ٩١٩م) كان يهجو نفطويه بشدة حيث قال فيه:

مَن سرَّه أن لا يرى فاسقاً ❖ فليجتهد أن لايَرى نفطويه

أحرقه الله بنصف اسمه ❖ وصيَّر الباقي صُراخاً عليه[١]

ويحتمل أن يكون هذا النقد الحاد من الواسطي لنفطويه نتيجة المنافسة الحادة بينها وربما جرت بينهما مناظرات كان الظفر فيها لنفطويه، وكره اليافعي ذكر صدر البيت الأول تقديراً لمكانة نفطويه وفضله، معللاً هجا بعض الناس له، بأنه لا يكاد يخلو ذو فضل من أن يُطعن فيه ويُعاب[٢] وذكر الذهبي بأن أبا عبدالله الواسطي كان يؤذي نفطويه بهجاه[٣]، كما كان الواسطي يُجهِّل نفطويه في علم الكلام[٤].

فاخر بعض العلماء أقرانهم بالمكانة العلمية التي وصلوا لها؛ لذلك انتقصوا من قدرهم وحطوا من شأنهم، ولعل ذلك نتيجة التقاطع المذهبي، فقد دخل أبو بكر بن مجاهد يوماً على أبي بكر الشبلي[٥] في مسجد الشُّونيزية[١] فتكلم معه وسأله عن حاله، ثم انتقص من قدره حين ذكر

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص٤٨؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، جـ٧، ص١١٣ ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٦، ص٨٦- ٨٧ .

(٢) مرآة الجنان، جـ٢، ص٢١٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء، جـ١٥، ص ٧٦.

(٤) سير أعلام النبلاء، جـ١٥، ص ٧٦.

(٥) اختلفوا في اسمه ونسبه فقيل: دُلَف بن جعفر، وقيل: دلف بن جحدر، ولعل الأول هو الصواب(٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١- ٩٤٥م)، وهو من أهل أشروسنة من قرية بها يقال لها شبلية، بغدادي المنشأ والمولد، فقيه ومحدث

ابن مجاهد للشبلي بأنه إن أراد الخير فعليه أن يختم القرآن الكريم في كل يوم بين يديه ختمتين وثلاثاً، فأشار له الشبلي إلى زاوية في المسجد وذكر له بأنه ختم القرآن الكريم في تلك الزاوية ثلاث عشرة ألف خَتمة إن كان فيها شيء قُبل فقد وَهَبهُ له، وأنه يدرس القرآن الكريم منذ ثلاث وأربعين سنة ما انتهى إلى ربع القرآن[٢]. وهذا يدل على دراسة الشبلي للقرآن الكريم دراسة متعمقة يبحث فيها عن كل صغيرة وكبيرة حتى يكون إلمامه شاملاً لكل ما قد تم طرقه ودراسته لمعرفة رسمه وشرحه وبيان معانيه وتبيان طرق القراءة الصحيحة والشاذة وأحكامه. وربما كان لاختلاف مذهبيهما سبب فيما جرى بينهما؛ إذ كان ابن مجاهد شافعياً[٣] بينما الشبلي مالكياً صوفياً[٤]، ويلاحظ الباحث أن السبكي عند حديثه عن بعض المناظرات التي جرت بين ابن مجاهد والشبلي، يذكر عبارة " رضي الله عنه"[٥] وكذلك ابن خلكان في كتابه(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) يعده من الذين رضا الله عنهم[٦]، وهم الصحابة الذين بايعوا الرسول بيعة الرضوان، ولعل ذلك مرده إلى أن السبكي كان ذو ميول صوفية، إن لم يكن قد تصوف وذلك باعتبار أن الشبلي من كبار مشايخ الصوفية الذين ساهموا بنشر طرقها.

في حين كان ابن شنبوذ(ت٣٢٨هـ/٩٤٠م) إذا أتاه رجل من القراء يريد أن يقرأ عليه، يسأله أولاً: هل قرأ على ابن مجاهد؟ فإن أجابه بنعم، لم يقرئه[٧] . وذلك للعداوة التي بينهما[١].

وشاعر، من أسرة ذات وجاهة ومكانة في المجتمع، تقلدت الكثير من المناصب الإدارية فخاله كان أمير الأمراء بالإسكندرية وأبوه من كبار حُجَّاب الخلافة. ينظر: السُّلَمي، أبي عبدالرحمن محمد بن الحسين(ت٤١٢هـ/ ١٠٢١م) . طبقات الصوفية، تحقيق وتعليق: مصطفى عبدالقادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ص٢٥٧- ٢٦٥ ؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج١٦، ص٥٦٣- ٥٧٣ .

(١) مسجد للصوفية ببغداد . السُّلمي، طبقات الصوفية، ص٢٦٦ .

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج١٦، ص٥٦٨ .

(٣) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص٥٧ .

(٤) السُّلمي، طبقات الصوفية، ص٢٥٧ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٧٣ .

(٥) طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص٥٨ .

(٦) ج٢، ص٢٧٣ .

(٧) الذهبي، معرفة القراء، مج٢، ص٥٤٩ .

٢- ٥- امتحان العلماء لبعضهم البعض

كان لطالب العلم والعالم قراءاتهما الخاصة بهما في صنوف العلم وما يؤيد ذلك أن بعض الفقهاء المعاصرين للقاضي أبو عمر محمد بن يوسف(ت٣٢٠هـ/٩٣٢م) أرادوا أن يتتبعوا خطأه لعلمهم بقلة فقهه فكانوا يُستفتون من قبل الناس فيقولون لهم امضوا إلى القاضي ونراعي ما يحكم به، فيدافع عن الأحكام مدافعة أحسن من فصل الحكم على واجبه وألطف، ثم تجيئهم تلك الفتاوي في تلك القُصص[٢]، فيخافون أن يُحرجوا إن لم يفتوا، فيفتون، فتعود الفتاوى إلى القاضي أبي عمر فيحكم بما يفتي به الفقهاء، ولم يعثروا عليه بخطأ[٣]. قال ابن كثير[٤]: " وكان من أعظم صواب أحكامه قتله الحسين بن منصور الحلاَّج، قبحه الله وأخزاه، وذلك في سنة تسع وثلاثمائة هجرية".

ولما علم المتكلمون في مدينة العسكر بقدوم أبي علي الجبائي إلى مدينتهم سنة ٢٩٨هـ/٩١١م اجتمعوا وعلى رأسهم أبو عمرو الباهلي وقرروا أن يحاولوا اختباره في مسألة يعجز عن الجواب عنها، فلما حضر مجلس الباهلي سألوه عن تلك المسألة فأجابهم بكلمة واحدة أسقط بها جميع ما رووه وأسكتهم كعادته في الإجابة بهذه الطريقة، وهي الإيجاز في الرد[٥]. ولم يفصح القاضي عبدالجبار في كتابه(فضل الاعتزال) عن هذه الكلمة الواحدة وهو يقصد أن أبا علي الجبائي يستخدم الايجاز والاختصار في إجابته.

---

(١) ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ١، ص٨٢ ؛ الذهبي، معرفة القراء، مجـ٢، ص٥٣٤، ٥٣٥ .

(٢) جمع قُصَّة، كما وردت في كتب التاريخ تعني قصة وهي القطعة من الورق أو الجلد أو القماش التي يُكتب فيها. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٨، ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٤، ص ٦٣٧ .

(٤) إسماعيل بن عمر(ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م). البداية والنهاية، جـ١٥، تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركي، (دار هجر، امبابة ، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص٦٦ .

(٥) القاضي عبدالجبار، فضل الاعتزال، ص٢٨٩ .

٢- ٦- التبادل المعرفي بين العلماء وطلابهم

كان العلماء في كل عصر وزمان يتبادلون العلم فيما بينهم[١] فمن كان يجيد علماً يبذله للآخر، وهذا العالم الثاني بدوره يبذل ما لديه من علوم لقرينه الأول، فكان كل عالم يستفيد من علوم أصحابه وهم يستفيدون من علمه، وقد يستفيد الأستاذ من علم تلميذه، ومما جرى من ذلك: أن أبا سعيد السيرافي[٢] قرأ على أبي بكر بن مجاهد القرآن، وعلى أبي بكر بن دريد اللغة، ودرسا عليه جميعاً النحو، وقرأ على أبي بكر بن السراج وعلى أبي بكر المبرمان النحو، وقرأ عليه أحدهما القرآن، ودرس الآخر عليه الحساب[٣]. وكان أبا سعيد السيرافي يحفظ جوامع الزهد نظماً ونثراً[٤].

من المعلوم أن التزود من العلم لا يتوقف عند مستوى علمي محدد، بل طلب العلم من المهد إلى اللحد؛ إذ لم يكن للتعليم سن معينة، فقد يتعلم المرء علماً ما كان يجهله وقد أصبح كبيراً في السن مع أنه قد يكون متقناً لعلم آخر، كما حصل هذا الأمر مع أبي سعيد أحمد بن محمد بن حمديج الحمديجي الذي كان فقيهاً، يتردد على مجلس ابن مجاهد فكان الأخير يكرمه لفقهه، فلما شاهد أبو سعيد ولوع الناس بالقراءة على ابن مجاهد، رغب بالقراءة عليه، فأخبره بذلك - وكان أبو سعيد يجلس عادة بجنب ابن مجاهد – فطلب منه أن يجلس مجلس التلامذة بين يديه، ففعل أبو سعيد ذلك، وافتتح يقرأ عليه مثل قراءة العامة حينها استغرب ابن مجاهد منه تلك القراءة وطلب منه أن يذهب إلى أحد تلامذته حتى يعلمه القراءة الصحيحة ثم يعود بعد ذلك للقراءة على ابن مجاهد، فخجل أبو سعيد من ابن مجاهد، كما أنه لما علم بمستوى أبي سعيد في تلاوة القرآن ترك إكرامه له[٥]. وكان بعض الطلاب النجباء يصححون لشيوخهم إذا أخطأوا[٦]. وروى القاضي عبدالجبار أن أبا

(١) ينظر: ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٥٨- ٥٩ ؛ الكتاني، نظام الحكومة، جـ٢، ص٢١٨- ٢١٩ .

(٢) سبق التعريف به .

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٨، ص٣١٧ ؛ ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٢٦٧ ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٢، ص٨٧٦ .

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٢، ص٨٨٦ .

(٥) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٢، ص٥٢٢ .

(٦) ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مجـ٤، ص٦٨٠- ٦٨١.

علي الجبائي كان حسن التواضع مع أصحابه والمتكلمين بوجه عام، وأنه لما دخل مدينة العسكر استقبله الناس، وتبادل معهم العلم، وحضر مجالس مناظراتهم واستفادوا من علمه[1].

وأخذ أبو بكر السراج علم المنطق عن أبي نصر الفارابي(ت٣٣٩هـ/٩٥٠م) فقد كانا يجتمعان في منزل أبي بكر السراج فكان السراج يقرأ على الفارابي علم المنطق، بينما كان الفارابي يقرأ على السراج علم النحو[2]. ولعل ذلك يأتي في إطار تبادل الخبرات العلمية فأبا بكر السراج نحوي بارع حاذق في هذا العلم. وأبو نصر الفارابي كان محباً ومطلعاً على علم المنطق والفلسفة رغم صغر سنه . ولعل كلاً منهما أرادا أن يكملا جانباً مهماً لم يكونا ملمين به، فأراد السراج أن يستوعب أسس علم المنطق وكذلك فعل الفارابي في النحو.

٢- ٧- توبيخ المعلم لطلابه

إن إتباع مبدأ الثواب والعقاب في العملية التعليمية يعزز من مخرجات التعليم والمحصلة العامة للتعليم، وهذا ما أكد عليه علماء النفس التربوي الذين أشادوا بهذا المبدأ في إثابة الطلبة المجيدين ومعاقبة المقصرين منهم في أدائهم وفي دراستهم والتزاماتهم وانضباطهم في سلوكهم[3]؛ وذلك في التعزيز وتطوير النظام التعليمي وتحقيق الغاية المنشودة منها وهي نشر العلم وإفادة المجتمع والأمة معاً.

ذكر أحمد بن كامل[4] بأن نفطويه كانت له مروءة وفُتوة وظَرْف[5]، وبأن نفطويه هجم عليهم يوماً في بستان كان له بالزُّبيدية – محلة ببغداد- في سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م فرآهم على حال قد تبدلت،

(١) فضل الاعتزال، ص٢٨٨ .

(٢) ابن أبي أُصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة(ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،" د. ت")، ص٦٠٦ .

(٣) التميمي، عبدالجليل مرتضى مصطفى . علم النفس التعليمي(سيكولوجية التعليم والتعلم)، (مكتبة دار الآفاق للنشر والتوزيع، صنعاء، " د. ت")، ص١٥ .

(٤) هو أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة(٢٦٠- ٣٥٠هـ/٨٧٣- ٩٦١م)، مقرئ ومفسر ومؤرخ بغدادي، كان تلميذا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وهو من كتب عن سيرة الطبري، من مؤلفاته: كتاب(التنزيل). ابن النديم، الفهرست، مجـ١، جـ١، ص٨٤ .

(٥) الظَّرْفُ: الكيَاسة، وقد ظَرُفَ الرجل فهو ظَرِيف، ورجل ظريف: فيه فكاهة ودُعابة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مجـ٩، ص٢٢٨- ٢٢٩.

فخاف أحمد بن كامل وذهب يعتذر إليه فقال نفطويه لأحمد بن كامل: التغافل عن النبيذ سُخْف[1]، وأنشد بيتين من الشعر لنفسه:

لنا صديق غير عالي الهمَم ❖ يُحصي على القوم سِقاط الكَلِم
ما استمتع الناس بشيء كما ❖ يستمتع الناسُ بطَرح الحِشَم[2]

٢- ٨- الظرف والبشاشة في تعامل العلماء مع طلابهم

تعامل الرسول الكريمﷺ مع أصحابه بالتبسم في مجلسه بمسجد المدينة، وقد كسب محبتهم وإقبالهم على أخذ العلم منه، وسار على نهجهﷺ المعلمون في عصر صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي[3].

امتاز بعض العلماء بخفة الروح؛ لذا كان طلبة العلم يقبلون على مجالسهم للتعلم وأخذ العلم منهم، ومن العلماء الذين تميزوا بذلك أبو عبدالله الواسطي فقد أشار ابن النديم إلى أن الواسطي امتلك روحاً مرحة دفعت بطلبة العلم إلى الإقبال على مجلسه وأخذ علم الكلام وغيره من العلوم عنه[4]، على عكس بعض العلماء الذين كانوا يستقبلون طلابهم بوجوه عابسة، ومهما يكن الأمر فلكل عالم أسلوبه وطريقته، وهذا الأمر لا ينتقص من قدر العلماء ومكانتهم.

كذلك كان الأخفش(ت٣١٥هـ/٩٢٨م) له مجلس علمي يدرس فيه علم النحو واللغة والشعر وكان يتمتع بالظرفة في تدريسه[5].

(١) القفطي، انباه الرواة، جـ١، ص٢١٦ . وأورد ياقوت الحموي هذه القصة وذكر بأن نفطويه قال: في التعاقلِ على النبيذ سَخَفٌ . معجم الأدباء، جـ١، ص١١٥ . وقد يكون سهواً أو خطأً مطبعياً .

(٢) المرزباني، أبي عبيد الله محمد بن عمران(ت٣٨٤هـ/٩٩٤م). كتاب نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، اختصار: أبي المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ اليغموري(ت ٦٧٣هـ/١٢٧٥م)، تحقيق: رودُلف زلهايم،(دار فرانتس شتاينر للنشر، فيسبادن- ألمانيا، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ص٣٤٤ . وأورد ياقوت الحموي هذه الأبيات ولكنه ذكر(بحسم) بدل (بطرح) ولعل الصواب (بطرح) . معجم الأدباء، جـ١، ص١١٥ .

(٣) ينظر: الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، جـ٢، ص٢٢٦- ٢٢٩، ٢٣٧- ٢٤١، ٢٨٤ .

(٤) الفهرست، مجـ٢، جـ٥، ص٦٢٠ .

(٥) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٤، ص١٧٧١ .

الخاتمة

بعد هذه الصورة من العرض يخلص البحث للنتائج الآتية:

١- تحلى المتعلمون بالآداب والأخلاق الإسلامية، ومنها: إخلاص النية في طلب العلم؛ وذلك لتحقيق خير الدنيا والآخرة، التوكل على الله سبحانه وتعالى والصدق في طلب العلم، عدم التكبر في طلبه، الاستفادة من قوة الذاكرة وملكة الحفظ في تلقي العلم وتحصيله وإجادته وتدريسه وهذا ما سلكه الدار قطني وابن الجعابي والشنبوذي في مسيرتهم العلمية وتعزيز هذه الملكة بالفهم حتى يستطيع المتعلم استيعاب المادة العلمية التي ينوي القيام بحفظها وهذا ما كان يُميز الحجاجي النيسابوري عن أقرانه من طلبة العلم، في حين طوّر بعض الطلبة من مستواهم المتدني حتى وصلوا إلى مكانة عالية في العلوم التي درسوها وخير مثال على ذلك ابن خلاد . إضافة إلى امتلاك عدد من المتعلمين لصفة الذكاء التي ساعدت على النبوغ العلمي في التلقي والعطاء وحصول هؤلاء الطلبة على الدعم المعنوي وربما المادي من أساتذتهم كما فعل ذلك أبو بكر بن دريد مع تلميذه أبي سعيد السيرافي الذي حظي باهتمامه ورعايته . وحث العلماء طلابهم على الجد والمثابرة والإصغاء والتركيز في تحصيل العلم مهما كانت ظروفهم وهذا ما طبّقه أبو منصور الأزهري الذي وقع أسيراً بيد القرامطة ولم يثنه ذلك من الاستفادة من لغة البدو الذين أسروه؛ وذلك لشغفه بالعلم وهذا ما يُطلق عليه اليوم بالرغبة الذاتية والدافع الذاتي. وحرص طلبة العلم على التعاون فيما بينهم وتمني الخير لبعضهم والابتعاد عن الحسد مع وجود حالات لمثل هكذا شعور إنساني في الوسط التعليمي فقد تعرض أبو سعيد السيرافي للحسد من قبل أقرانه . وحظي المعلمون بتقدير واحترام تلاميذهم والدفاع عنهم في حال تعرضهم للنقد السلبي البعيد عن العلمية والموضوعية، وهذا ما رفع من قدر هؤلاء وساعد على تفاني العلماء في البذل والعطاء العلمي لطلابهم الذين أخذوا بنصائح شيوخهم لهم . كذلك الأمانة العلمية وتحري الدقة والبحث وتقصي المعلومات. ومن ذلك –أيضاً - السمع والطاعة لمعلمه فيما يرضي الله، والاستمرار بالتزود من العلم وعدم التوقف عند مستوى علمي محدد، بل طلب العلم من المهد إلى اللحد، والشكر والامتنان بفضل المعلم عليه، والعمل بما تعلمه ليكون العلم شاهداً له لا شاهداً عليه، وبذل المال من أجل العلم وتحمل مشاقه .

٢- تزيّن العلماء بالآداب والأخلاق الإسلامية، ومنها: القدوة الحسنة في القول والعمل، الإخلاص في تعلم العلم وتعليمه، والاحترام والتقدير المتبادل بين أهل العلم والثناء على بعضهم بما يستحقوه من ثناء والقيام بزيارة بعضهم البعض وتفقد أحوالهم وعيادتهم في مرضهم وتعزية بعضهم في وفاة أحد أقرانهم . والتواضع مع طلابهم وأفراد المجتمع؛ لأن من تواضع لله رفعه والعلم يرفع طالبه الصادق في طلبه، والصدق في تعلم العلم وتعليمه، والعمل بما تعلمه، والحزم والعزم والجد في طلب العلم وتعليمه، والزهد وعدم الانشغال عن العلم إلا للضرورة، وإعطاء الوقت الكافي للعلم وتحصيله . وكان العلماء يتباهون فيما بينهم بقوة الحفظ، وتجري بينهم منافسات ومناظرات علمية وتعرضوا للنقد السلبي والإيجابي، وجرى بينهم تثاقف علمي في مختلف العلوم ودلل البحث على كل ذلك بالأمثلة .

المصادر والمراجع:

[1] ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م). اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، (د. ت).

[2] ابن أبي أُصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة(ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م). **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت) .

[3] ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبدالواحد بن محمد (٥٧٧هـ/ ١١٨١ م) . **نزهة الألباء في** طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

[4] بروكلمان، كارل (ت١٣٧٦هـ/١٩٥٦م). **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

[5] أبي بكر الزبيدي، محمد بن الحسن(ت٣٧٩هـ/٩٨٩م) . **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م .

[6] البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت بعد سنة٣٢٠هـ/٩٣١م). **المحاسن والمساوئ**، وضع حواشيه: عدنان علي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت) .

[7] التميمي، عبدالجليل مرتضى مصطفى . **علم النفس التعليمي(سيكولوجية التعليم والتعلم)**، مكتبة دار الآفاق للنشر والتوزيع، صنعاء، (د. ت).

[8] الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد(ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) . **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٠٣، ١ه/١٩٨٣م .

[9] ابن جماعة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني(ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م). **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العَالِم والمتعلم**، عناية: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م .

[10] ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م). **صفة الصفوة**، تحقيق: طارق محمد عبدالمنعم، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، الإسكندرية – مصر، (د. ت) .

[11] & **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

[12] ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م). **لسان الميزان**، عناية: عبدالفتاح أبو غدة وسلمان عبدالفتاح أبوغدة، دار البشائر الإسلامية للطباعة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م.

[13] الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت(ت٤٦٣هـ/١٠٧١م) . **تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها وواريديها (تاريخ بغداد)**، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

[14] & **كتاب الفقيه والمتفقه**، تحقيق: عادل بن يوسف العَزَازي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية- الدمام، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

[15] ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

[16] الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م). **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

[17] & **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، تحقيق: طيَّار آلتي قولاج،(د. ن)، استانبول، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

[18] & **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

[19] الرامهرمزي، الحسن بن عبدالرحمن(ت٣٦٠هـ/٩٧١م). **المحدث الفاصل بين الراوي والواعي**، تحقيق وتقديم وتخريج وتعليق وفهرسة: محمد عجاج الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

[20] روزنثال، فرانز . **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي**، ترجمة: أنيس فريحة، مراجعة: وليد عرفات، دار الثقافة، بيروت- لبنان، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، نيويورك- الولايات المتحدة الأمريكية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

[21] الزجاجي، أبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق(ت٣٤٠هـ/٩٥١م) . **مجالس العلماء**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، التراث العربي سلسلة تصدرها وزارة الإعلام(٩)، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

[22] الزركلي، خيرالدين. **الأعلام**، جـ٤، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

[23] الزرنوجي، برهان الإسلام . **تعليم المتعلم طريق التعلم**، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط١، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م .

[24] السبكي، أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م) . **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

[25] السخاوي، محمد بن عبدالرحمن(ت٩٠٢ھ/١٤٩٧م). **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، تحقيق: فرانز روزنثال، ترجمة: صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت) .

[26] ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠ھ/٨٤٥م) . **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق : علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١ھ/٢٠٠١م .

[27] السُّلَمي، أبي عبدالرحمن محمد بن الحسين(ت٤١٢هـ/١٠٢١م) . **طبقات الصوفية**، تحقيق وتعليق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

[28] السمعاني، عبدالكريم بن محمد بن منصور(ت٥٦٢ھ/١١٦٦م). **الأنساب**، تحقيق: عبدالرحمن المعلمي اليماني وآخرون، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠ھ/١٩٨٠م .

[29] السيرافي، الحسن بن عبدالله (ت٣٦٨ھ/٩٧٩م). **أخبار النحويين البصريين**، تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبدالمنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٣٧٤ھ/١٩٥٥م .

[30] السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد(ت٩١١ھ/١٥٠٥م). **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، شرح وتعليق: أبو عبدالرحمن صلاح بن محمد بن عويضة ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

[31] & **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار الفكر، مصر، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

[32] الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٤م). **طبقات الفقهاء**، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م .

[33] الصالحي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالهادي الدمشقي (ت٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م) . **طبقات علماء الحديث**، تحقيق: أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

[34] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) . **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

[35] طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى(ت٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م). **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

[36] ابن فرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م). **الديباج المُذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دراسة وتحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنّان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

[37] ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) . **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م .

[38] الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب(ت٨١٧هـ/١٤١٤م). **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**، تحقيق: محمد المصري، دار سعدالدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

[39] القاضي عبدالجبار، أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م) . **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين**، اكتشاف وتحقيق: فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، (د. ت) .

[40] القفطي، أبي الحسن علي بن يوسف (ت٦٢٤هـ/١٢٢٧م). انباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق : محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

[41] الكتاني، محمد عبدالحي (ت١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) . **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**، تحقيق: عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

[42] ابن كثير، إسماعيل بن عمر(ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م). **البداية والنهاية**، تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركي، دار هجر، امبابة ، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

[43] ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (ت٨٤٠هـ/١٤٣٧م) . **كتاب طبقات المعتزلة**، عنيت بتحقيقه ونشره: مؤسسة ديفلد – فِلزر، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

[44] المرزباني، أبي عبيد الله محمد بن عمران(ت٣٨٤هـ/٩٩٤م). **كتاب نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء**، اختصار: أبي المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ اليغموري(ت٦٧٣هـ/١٢٧٥م)، تحقيق: رودُلف زلهايم، دار فرانتس شتاينر للنشر، فيسبادن- ألمانيا، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

[45] المسعودي، علي بن الحسين(ت٣٤٦هـ/٩٥٧م). **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، عناية ومراجعة: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م .

[46] مصطفى، محمود. **إعجام الأعلام**، جـ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

[47] ابن منظور، محمد بن مكرم(ت٧١١هـ/١٣١١م). **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م .

[48] ابن النديم، محمد بن اسحاق(ت٣٨٠هـ/٩٩٠م). **كتاب الفهرست**، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

[49] اليافعي، عبدالله بن أسعد بن علي(ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م). **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

[50] ياقوت الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) . **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .